دراسات تاريخية المجلد العاشر العدد الثاني السنة1444هـ/2022م ص ص 182-198

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

السفارات بين غرناطة وفاس على عهد بني نصر وبني مرين خلال القرنيين 7-8هـ/ 13-14م (الخلفيات والمظاهر والنتائج).

Embassies between Granada and Fez during the era of Bani Nasr and Bani Marin during the two centuries 7-8 A.H. / 13-14 A.D. (Backgrounds, appearances, and results).

سفيان صرصاق
Sofiane sarsag
جامعة الجزائر2(الجزائر)
Sofianesarsag1980@gmail.com

أ.د/ عبد العزيز بوكنة
Boukkna abdelaaziz
جامعة الجزائر2(الجزائر)
boukscientific@gmail.com

الارسال:2022-05-28 القبول :2022/06/17 النشر:2022/10/03 المرسل: سفيان صرصاق

الملخص:

عرفت غرناطة وفاس خلال القرنين السابع والثامن هجريين الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين تقاربا كبيرا مس مختلف ميادين الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية ،وهو ما وضحته تلك السفارات المختلفة التي كانت تصل من وإلى الجهتين الأندلسية والمغربية ،حيث كشفت عن مدى الصلة الوثيقة التي كانت تربط ضفتي البحر الأبيض المتوسط الإسلاميتين بعضها البعض في العصر الوسيط ،خصوصا في الفترات العصيبة التي كانت تشهد تحرشات كبيرة من طرف القوى المسيحية الصاعدة ،لذلك كان لزاما على الطرفين النصري والمريني تكثيف الجهود لصد تلك التطلعات بهدف الحفاظ على استقرار أمنهما وتأمين مكتسباتهما المختلفة.

وهو ما سنقف عليه من خلال دراستنا لمضامين تلك السفارات وكيف أسمهت في تمتين العلاقات بين الطرفين الغرناطي والفاسي في الآن ذاته.

الكلمات الدالة : غرناطة، فاس، بني نصر، بني مرين، السفارات .

Abstract

During the thirteenth and fourteenth centuries, Granada and Fez witnessed a great rapprochement that touched the various fields of political, cultural and economic life, which was clarified by those different embassies that were arriving to and from the Andalusian and Moroccan fronts, where they revealed the extent of the close relationship that linked the two banks of the White Sea. The two Islamic Mediterranean countries met each other in the Middle Ages, especially during difficult periods that were witnessing great harassment by the risingChristian forces, so it was necessary for the Nasrid and Marinid parties to intensify efforts to repel these aspirations in order to maintain the stability of their security and secure their various gains.

This is what we will stand on through our study of the contents of those embassies and how they were named in strengthening the relations between the Granada and the Fassi parties at the same time.

Keywords. *Granada, Fez, Beni Nasr, Beni Merin, embassies*

مقدمة:

شهدت بلاد الغرب الإسلامي عبر مر السنين تنامي ظاهرة تعدد الإمارات والدويلات المستقلة التي أوجدها ذلك الصراع المحتدم الذي طغى للوجود بسبب الخلافات والصراعات المتشعبة المصالح، حيث أثرت بدورها على مختلف ميادين الحياة وعلى رأسها المجال السياسي، الأمر الذي جعلها بحاجة ماسة إلى التواصل فيما بينها حتى تستطيع المحافظة على مكتسباتها المختلفة وتعطي نوعا من إثبات الوجود وإحكام السيطرة على مجالها الحيوي وهو ما تجسد فعلا في ظهور ما عرف بالسفارات ،وبما أن سلطنتي غرناطة[1] وفاس[2] كانتا من ضمن أهم القوى في القرنيين السابع والثامن هجريين الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين، فقد كان لهما حظ وافر من السفارات فيما بينهما، فما هي أسباب ذلك؟ وما هي مظاهرها؟ ومن هم أشهر السفراء من الطرفين؟ وما هي أهم القضايا التي أوفدوا لأجلها؟ .

1/ عوامل قيام السفارات الغرناطية الفاسية:

سارت كلا من سلطنتي غرناطة وفاس على الأعراف الدبلوماسية التي كانت مشتهرة بين مختلف الدول المعاصرة لهما ،ولذا اعتنى كل منهما بشأن السفراء وما تعلق بهم، ولعل من بين أهم الأسباب التي ساعدت على ظهور وتطور مهام السفارة هو:

- مدى وعي الطرفان بأهمية هذا المنصب الرفيع الذي يصب في باب السياسة الخارجية التي حتمت عليهما ضرورة التواصل فيما بينهما حرصا على تقوية دولتيهما والمحافظة على المكتسبات المحققة.

- حسن العلاقات بينهما التي دامت لفترات طويلة خلال أوقات السلم أو الحرب معا، ويظهر ذلك جليا للعيان من خلال العدد الكبير للسفراء الذين كانوا ينزلون بين الفينة والأخرى بكل من غرناطة وفاس على عهد بني نصر[3] وبني مرين[4] على حد سواء.

- وجود خطر مشترك تمثل في تحرشات القوى المسيحية الناشئة والتي كانت تمثلها على وجه الخصوص مملكتي قشتالة والأراغون، وهو ما لزم الطرفان الغرناطي والفاسي بضرورة العمل المتواصل على مد جسور التوافق والتكامل حماية لدولتيهما من الخطر المحدق بهما.

- وصول بعض الشخصيات القوية من السلطنتين النصرية والمرينية إلى سدة الحكم وما عرف عنها من بعد النظر والسياسة الرشيدة في استكمال بناء دولتيهما وتقويتهما داخليا وخارجيا.

- رابطة الدين وحسن الجوار فرضتا على الطرفين ضرورة العمل الثنائي وتكثيف الجهود بهدف الارتقاء إلى مصاف القوى الكبرى التي أخذت في النمو والتطور المستمر.

أما إذا حولنا الوقوف على السفارات بين الطرفين فسنجدها اتخذت أشكالا وأقسام متنوعة يمكن إبرازها على النحو الآتي:

2/مظاهر السفارات النصرية المرينية:

2-1/ السفارات العادية (الودية):

أ/ سفارات التهاني:

تعتبر سفارات التهاني من بين أشهر وأكثر السفارات التي كانت تتم بين البلاطين الغرناطي والفاسي معا ،وذلك مرده إلى حرص الطرفين على استغلال كل ما يمكنهما من تقوية حسن علاقتهما مع بعضهما البعض ،ولعل من بين تلك السفارات نجد تهنئة سفير غرناطة على لسان سلطانه أبي الحجاج يوسف النصري خص بها السلطان أبي عنان المريني[5] ت759هـ/1360م بمناسبة جلوسه على عرش فاس على إثر وفاة والده السطان أبي الحسن المريني عام752هـ/1353م، واصفا إياه بخصال حميدة ،أهلته حسب رأي المملكة النصرية ليكون جديرا بوراثة عرش بلاده ومدبر شئونها ،ومما جاء في الرسالة التي حملها السفير بنفسه: «...مقام محل أخينا الذي جدد البيت الكريم ورفع أركانه...طالبا إرث أبائه وجدوده، فحاز تراثه واسترد سلطانه...والوارث الأحق قد فاز بحقه ،والجواد الكريم قد تميز في ميدان السعد بخصل سيفه...فخاطبناكم بهذا الكتاب، نؤكد سرورنا بما ألبسكم الله من تلك الحلل، ونسله لكم تمام القصد وبلوغ الأمل...فالله عز وجل يهنيكم بما أولاكم من منحة حافلة ،وصنيعة في حلل الكمال رافلة...»[6].

وفي سفارة أخرى في نفس الشأن ينزل سفير غرناطة ضيفا على فاس مهنئا لبلاطها السعيد بانتصاره على الأمير أبي ثابت الزياني حاكم بجاية، وأبلغهم فيها سعادة السلطان الغرناطي الكبيرة وسروره بذلك النصر الذي يرى فيه انجازا كبيرا زاد من هيبة السلطنة المرينية ببلاد المغرب الإسلامي وتراجع قوة منافسيها به ،حيث بلغ صيت ذلك الخبر إلى غرناطة وضواحيها فسعد به أهلها، ومما ورد في تلك التهنئة: «...أيد الله أمركم الرفيع تأييدا وألهمه شكرا لا يعدم معه مزيدا...وإن عدوكم أجهز القدر على جريحه ونشأت رياح البشائر بحمود ريحه...فأصبح الشرق لنور دعوتكم مشرقا...وأننا أخدنا من السرور بتمام نعمة الله عليكم، واستقرار فذلكة الفتح لديكم بأقصى ما يأخذه الولي الحميم...»[7].

والحال ذاتها مع تلك السفارة التي أرسلها البلاط الغرناطي إلى حضرة سلطان فاس عام 751هـ/1351م يشاطرونه فيها فرحة رفع النصارى[8] للحصار الذي كان مضروبا على مضيق جبل طارق[9] ،فكان رد بني مرين على ذلك في سفارة وصلت إلى غرناطة فحواها أن بني مرين مستعدون في كل وقت لتقديم المعونة لإخوانهم من سلاطين بني نصر لمواجهة أي عدوان نصراني مهما كان شكله ،ومن شأنه أن يلحق الضرر بمسلمي غرناطة ،وهو ما أفرح السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري أيما فرح وجعله يرسل برد سريع حمله أحد سفراء سلطنته على جناح السرعة إلى فاس ،ومما ورد في ذلك قوله: <<...فإننا ورد علينا كتابكم الذي موقعه عند العدو موقع الكتايب ...فاجتلينا منه سحابة جود صابت على الأرجاء ،وتألقت من خلالها بروق الرجاء...فأهلا به من خطاب تبارى في ميدان الكمال قوله وفعله...وفضلكم الذي اعترف الموجود به الوجوب...فصدعنا بذلك الكتاب في الحفل المجموع، وأشدنا بفضله المرءى والمسموع...»[10].

ب/ سفارات التعازي:

تعد التعازي من المعالم والملامح النبيلة التي حرص عليها كل من سلاطين غرناطة وفاس في تعاملاتهم الثنائية معا ،كما عملوا على جعلها في الآن ذاته من ضمن محاسن سياستهم الخارجية، ولذلك أولوها حقها من العناية من خلال تخصيص جزء لا بأس به من حجم السفارات القائمة بينهما، ولعل من بينها في هذا الباب نجد سفارة تعزية السلطات الغرناطية للدولة المرينية في وفاة السلطان أبي الحسن المريني ت752هـ/1353م، حيث حمل السفير الغرناطي رسالة على لسان سلطانه عبد الله يوسف بن أبي الوليد النصري أعرب لهم فيها عن مدى هول تلك الفاجعة الكبيرة التي أودت بحياة سلطان فاس وأثرها الكبير على مملكة غرناطة وأهلها، ومعزيا ابنه وخليفته السلطان أبي عنان، ومما ورد في ذلك الشأن: <<المقام الذي صبره في النوائب جميل وشكره على المواهب بالمزيد كفيل[11]...فإننا ورد علينا الخبر الذي قبض وبسط وجار وأقسط ...خبر وفاة والدكم محل أبينا السلطان العظيم القدر...فياله من سهم رمى أغراض القلوب فأثبتها، وطرق مجتمعات الآمال فشتتها...حادث نبه العيون من سنة غرورها ،وذكر النفوس بهم أمورها وأشرق المحاجر بماء دموعها...>>[12].

كما بادل المرينيون بدورهم مملكة غرناطة شعور الحزن والأسى الذي كان يصيب أهلها وسلاطينهم بفقدانهم لذوي الوجاهة في الدولة على وجه الخصوص، وهو ما نقف عليه في ذلك الجواب عن سفارة التعزية التي وصلت إلى غرناطة من سلطان فاس أبي عنان المريني معزيا في وفاة السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف النصري ت755هـ/1356م ،شملها شرح للحادثة الفظيعة التي أدت إلى مقتله ، ومما تضمنته تلك الرسالة: «...المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده، ويهز به إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده...نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله عن حوباته، وإمتاع الله المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله بالشهادة التي ألبست حلتها...أنه ﷺ لما برز الإقامة سنة هذا العيد مستشعرا شعار كلمة التوحيد...إلا شقي قيضه الله لسعادته ،غير معروف ولا منسوب...تخلل الصفوف المعقودة وتجاوز الأبواب المسدودة...بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته في ما ساء وسر وأحلى وأمر ،عملا بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر والحب الذي ما مال يوما ولا ازور...>>[13].

ج/سفارات الهدايا:

كان لوصول الهدايا إلى غرناطة و فاس على حد سواء من المظاهر السعيدة التي لها وقعها الخاص على الجانبين النصري والمريني معا، وهو ما توقفنا عليه تلك السفارات العديدة في هذا الشأن ،لعل أبرزها وصول سفير فاس مصحوبا بمجموعة من الخيل مرفقة بمال وفير إلى غرناطة، فأعجبت تلك الهدية سلطانها وحاشيته أيما إعجاب خصوصا أنها ساهمت في رفع الضائقة الشديدة التي كانت تشهدها غرناطة في إحدى الفترات العصيبة بسبب التحرشات القشتالية على حدودها ،وهو ما يورده ذلك الرد السلطاني عليها: «...وصلنا كتابكم الكريم الوفادة العظيم الإفادة، مصحبا بالهدية التي صحبها الكمال ...واشتملت على نكايتي العدو وهما الخيل والمال...ويالها من هدية اتخذ الناس يومها عيدا وموسما سعيدا، وعزم رآه العدو قريبا وكان يحسبه بعيدا...>>[14].

والشأن ذاته نجده يتكرر في تلك الهدية القيمة التي وصلت إلى غرناطة عام 770هـ/1369م قادمة من فاس حيث جاوز البلاط الغرناطي الحد في مدح السلطان أبو فارس عبد العزيز المريني بشتى الأوصاف، وبالغ في ذكر أقسام هديته وتعدادها، وذلك في رسالة عاد بها سفير فاس إلى دولته ،ومما ورد فيها: <<المقام الذي جدد العهد وخلف وليه العهد واستأنف السعد...ابن محل والدنا الذي نعظمه ونجله ونوجب له الحق الذي هو أهله...معظم قدره العالي في الأقدار...الداعي له بمساعدة الأقدار وعقبى الدار...زين بالخط الخطاب...مصحبا بأشتات الهديات حسا ومعنى، فأما الحس فالصواهل الضامرة والآلات الفاخرة المهندات الباقرة...وأما المعنوي وهو أعلقها بالنفس وأعودهما بالمزيد من الأنس...>>[15].

2-2/ السفارات الاضطرارية:

أ/ سفارات الإستنجاد:

كانت غرناطة على وجه الخصوص كلما داهمها الخطر الصليبي المتمثل في تحرشات كل من مملكتي قشتالة والأراغون إلا وتسارع إلى طلب النجدة من سلطنة بني مرين القوية آنذاك، وهو ما نقف عليه عند الغوص في المصادر التي عنيت بتاريخ الدولة النصرية وعلى رأسها مؤلفات مؤرخها الكبير لسان الدين ابن الخطيب، حيث تبرز لنا هذه الشخصية العديد من السفرات التي تكرر حدوثها في هذا الشأن ،ومن بينها تلك السفارة التي وصلت إلى فاس على عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني، يطلب فيها أهل غرناطة إنقاذ منطقة جبل الفتح ويأملون منه الإسراع في تلبية ذلك، وهو ما توقفنا عليه تلك الرسالة التي حملها أحد السفراء الغرناطيون والتي منها: «...المقام الذي يصرخ وينجد، ويتهمم في الفضل وينجد ويسعف ويسعد...فعليكم بعد الله المعول ،وفيكم المؤمل، فارعونا أسماعكم المباركة، نقص عليكم ما فيه رضى الله...أن صاحب قشتالة لما عاد إلى ملكه ورجع إلى قطره...مستكثرا بالأمة التي داس بها أهل قشتالة...تفرغ إلى شفا غليله وبلوغ جهده...وقد وجهنا هذا المبارك للحضور بين يديكم ،مقررا للضرورة ،منهيا للرغبة...وإنشاء الأساطيل وجبر ما تلف من عدة البحر، أمور تدل على ما وراءها، وتخبر بمشيئة الله عما بعدها...>>[16].

ولم تك السفارة المذكورة وحيدة الحال في هذا الباب بل سبقتها دعوتا نجدة من سلطان فاس الشهير أبي عنان المريني ت759هـ/1360م، الأولى نوه فيها البلاط الغرناطي بفضله ومدح خصاله، ومما جاء فيها: <<...المقام الذي وده متأكد الوجوب ،ووجه فضله ليس بالمحجوب، وعقد حبه متقرر في القلوب...ومن الاعتداد بجهادكم عزمات تشحذ الثقة بالله نصولها وآمال يرتب حسن الظن بالله صلتها وموصولها... >>[17].

أما السفارة الثانية فأشاد فيها السلطان أبو الحجاج يوسف النصري بشخص السلطان أبي عنان وسلطنة بني مرين على عهده، وهو ما توضحه فحوى الرسالة التي وردت فاس ،ومنها: «...فإن العدو أهلكه الله يرهب صولة سلطانكم...ويعلم أن اتصال اليد باليد سبب الدمار له والثبار...فبمقامكم نتوعده إذا تعدى ونصد عزمه إذا تصدى على مر الأعصار...>>[18].

لكن هذا لا يعني أن الغرناطيين كانوا عالة على دولة بني مرين في هذا الباب بل نجدهم أحيانا يسارعون بدورهم إلى تلبية طلباتهم ولا يبخلون عن دعم سلطنة فاس كلما تيسر لهم ذلك ،وإن كانت مساعداتهم قليلة إذا ما قورنت بحجم المساعدات ونجدات بني مرين لهم ،وهو ما توقفنا عليه تلك السفارة التي وردت على فاس ردت فيها غرناطة على طلب سفير السلطان أبي الحسن المريني ت752هـ/1353م بخصوص مساعدة طلبها منهم ،وتكشف في نفس الوقت عن مدى سرعة تلبية السلطات النصرية لطلبات السلطنة الفاسية، ومما ورد في تلك الرسالة: «...فإننا وقفنا على كتابكم الكريم الوفادة، السافر عن السعادة ،الذي وجهتموه مع خديمكم فلان وصل الله عزته...وأشرتم علينا أن نعينكم على هذا الغرض ،ونسير لكم أسباب القيام بهذا الواجب المفترض...وعينا من أسطولنا من يتولى الخدمة في هذا الأمر، فلما ورد علينا كتابكم الآن ألفى حاجة قد قضيت ومثابة كريمة قد أرضيت، وحقوقا واجبة قد وفيت، وموارد وداد قد أعذبت وأصفيت...>>[19].

ب/ سفارات الاعتذار:

تكشف سفارات الاعتذار عن بعض الفترات الحرجة التي كانت تشهد فيها العلاقات الغرناطية الفاسية نوعا من الفتور في التواصل، وذلك مرجعه إلى ضبابية في التعامل بين الطرفين حول بعض القضايا الجوهرية ،كحرية تنقل الأشخاص وموقف كلاهما من الآخر حول عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع الإمارات والممالك المجاورة ناهيك عن فردية اتخاذ القرارات في مختلف المجالات دون الحاجة إلى استشارة بعضهما البعض.

ولعل من بين تلك السفارات في هذا الشأن نجد رفضهم لتسليم الأمير أبي الفضل بن أبي الحسن المريني الذي قاد حملة معارضة لأخيه السلطان أبي عنان بعد اعتلائه لعرش المرينيين ،وشكل عقبة في طريق بناء دولته وتقويتها، وهو ما أدى بسلطان فاس إلى إرسال سفير إلى سلطان غرناطة يدعوه إلى تقديمه للسلطة المرينية دون تأخير أو سابق شرط غير أن ذلك لم يتحقق بالفعل، كون الأمير المطلوب فر إلى مملكة قشتالة ،طالبا معونتها بغرض الإطاحة بحكم أخيه السلطان أبي عنان ،وهو ما نلمسه في تلك الرسالة التي ظاهرها الاعتذار لشخص السلطان المريني عن ما أقدم عليه شقيقه وتبرئة لذمة غرناطة عن فعلته تلك، حيث أجاد فيها سفير غرناطة اختيار العبارات الرنانة والكلمات المفخمة المناسبة لمثل هذه الأحوال ،ومما ورد في ذلك: «...وأن أخاكم أبا الفضل لما كان قد استبطن عقيدة المكيدة ،وآثر اتباع الآراء غير السديدة...فبادرنا إلى توجيه الفرسان في أثره وطيرنا من أنجاد الخدام من يعوقه وطره...فألفوه قد لحق بأرض النصارى راكبا في قصدها الخطر... فامتعضنا لهذا الواقع عندما تعرفناه ،ووجهنا إليه وجه العزم وصرفناه ...وبادرنا إلى تعريف مقامكم الذي نعتد بجانبه...ليكون على علم من هدا الواقع الذي اتفق...>>[20].

وتحاول الدولة النصرية بعد هذه الحادثة تبرئة نفسها من عدم القبض على الأمير أبي الفضل المريني عن طريق سفارة ثانية نقلت أخبار سارة لبلاط فاس فحواها أن الأمير المشار إليه لم يفلح في ما قصد إليه، وأن ذلك أثلج صدور الغرناطيين بعدم إلحاق الضرر بحلفائهم المرينيين، وهو ما نلمسه في تلك الرسالة التي حملها سفير غرناطة إلى الحضرة الفاسية، ومما ورد فيها: «...فإننا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد

لخدع الآمال والاغترار بموارد الآل...وأضمر عملا استأثر عنا بإخفائه واستظهر من عدو الدين بمعين قل ما ورى لمن استنصر به زند ولا حقق لمن تولاه بالنصر بند...فأورده الهلك والظلم الحلك...فبينا نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة وخمود تلك الشعلة الوقودة، وصلنا كتابكم يشرح الصدر بشرح الأخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار...>>[21].

كما أن الغرناطيين في أحيان أخرى تجدهم يعكفون على إرسال السفراء للإعتذار عند عجزهم عن تلبية بعض طلبات سلاطين فاس ،ولعل أبرزها ما حصل في عهد السلطان أبي الحسن المريني الذي تعرض لضائقة شديدة بعد انهزام جيشه في معركة القيروان ضد الحفصيين عام 749هـ/1348م، حيث اعتذر له السلطان أبو الحجاج يوسف النصري عن عدم قدرته على تنفيذ طلبه ،واكتفى بإرسال سفير تحجج له بأن ظروف بلاده الخاصة آنذاك لا تسمح بذلك[22].

أما بخصوص السفراء الذين اشتهروا بهذه المهنة المرموقة والخطيرة في الآن ذاته نجد من الجانب الغرناطي السفير أبو بكر عتيق بن زكريا ت730هـ /1331م الذي أوفدته غرناطة إلى فاس على عهد السلطان أبي يوسف بن عبد الحق المريني[23] في شكل سفارة ودية، وفي هذا الصدد يذكر ابن الخطيب[24]: «...عين للرسالة إلى باب السلطان ملك المغرب، وسد باب الإياب لوجهته، وأقام بالعدوة تحت الحظوة ،مشارا إليه في وجوه الدولة ،وزير المداخلة والرتبة...>>[25].

وكذلك السفير أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الشهير بابن الجياب ت749هـ /1350م الذي اشتغل قبل ذلك كاتبا لدى سلاطين بني الأحمر قرابة خمسين سنة، أهلته حكمته وتمرسه في خبايا الحكم وشئون السياسة إلى تقلد منصب سفير غرناطة إلى ملوك الدول المجاورة وعلى رأسها سلطنة بني مرين على عهد سلطانها أبي الحسن المريني ت752هـ/1353م، وهو ما جعل ابن الخطيب يصفه بقوله: «...شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ...حامل راية المنظوم والمنثور...مراقبا لوظايف الأبواب السلطانية...سفر إلى الملوك...استعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه...>>[26].

ونجد أيضا عالم غرناطة الكبير أبي البركات ابن حاج الذي يصف ابن الخطيب نبوغه الشهير وأهليته الكبيرة لتقلد هذه المهمة الخاصة صوب فاس بقوله: «...أجهدنا عبارة الكلام في إجلال هذا الصنع ،وتعظيم شانه...واخترنا لشرحه بين يديكم خطيب الوفود، وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود...أبا البركات ابن الحاج...البطل الدي يعلم الإجالة في الميدان...ومرادنا منه أن يطبل ويطيب ويخيل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب...>>[27].

وكذلك شيخ الغزاة أبي زكريا يحي بن رحو الذي أوفده السلطان أبو الحجاج يوسف النصري كسفير إلى سلطنة فاس حاملا رسالة يطلب فيها من حضرة سلطانها المساعدة العسكرية لمجابهة خطر النصارى الذي بات يهدد مملكة غرناطة واستقرار أحوالها، وفي ذلك يورد ابن الخطيب قائلا: <<المقام الذي وسع الأمتين عدله وإحسانه...أبقاه الله مخولا من التوفيق أسنى المواهب...ذاخر من نصره إياه جيوش عزم تسير أمام

الكتائب...ونحن نعتمد من مقامكم على الظل الممدود والورد المقصود...فما زالت أعمالكم في سبيل الله كريمة الخواتم والفواتح، شاهدة بما لكم عند الله من التجر الرابح ،كافأ الله قصدكم المتكفل برعي المصالح..>>[28].

والشأن ذاته نجده يتكرر مع الوزير محمد بن أبي بكر بن يحي الشهير بالقيطاجي الذي كان يشغل منصب وزير لدى السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج النصري، حيث أوفده في مهمة رسمية إلى فاس على عهد السلطان أبي الحسن المريني عام 729هـ/1330م[29].

ولا يعقل التطرق إلى هذا الباب الهام من علاقات الدول الخارجية دون الوقوف عند شخص وزير غرناطة وسفيرها لسان الدين ابن الخطيب ت776هـ/1377م بحد ذاته الذي اشتهر في هذا الشأن وذاع صيته في كل مكان، كيف لا وهو من اعتاد النزول إلى فاس في مناسبات عدة وفي أوقات السلم والحرب، ونجده يصف بنفسه إحدى السفرات[30] على عهد سلطانه أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري ت755هـ /1356م إلى السلطان أبي عنان المريني ت759هـ/1360م بقوله: «...وسفرني إليه لأول الأمر معزيا بأبيه ،ومهنيا بما صار إليه من ملكه ،واستصحبت إليه كتابا من إنشائي...>>[31].

ويذكر في مناسبة: «...فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام خمسة وخمسين المذكور...فأحسب وكفى ،واحتفل واحتفى...>>[32]، ويذكر في أخرى: «...وجرت بين هذا السلطان وبينه المخاطبات والمراسلات وسفرت إليه عنه...>>[33]، ويتباهى في مناسبة بقوله: «...واستعملني في السفارة إلى الملوك ،واستنابني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه...>>[34].

ولتمرس ابن الخطيب في هذا الميدان السياسي الواسع ،نجده يواصل مهمة السفير على عهد السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل النصري[35] وعن ذلك يذكر: «... وسفرني في الرسالة عنه إلى السلطان الخليفة الإمام ملك المغرب وما إليه من البلاد الإفريقية أبي عنان...>>[36] ، ومدح نجاح تلك السفارة بقوله: «...وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفير، من واد أصيل، وإمداد موهوب، ومهاداة أثيرة وقطار مجنوب، وصامت محمول ،وطعمة منسوعة...وقد نجح السعي وأثمر الجهد، وصدقت المخيلة...>>[37].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من السفراء الغرناطيين من وافتهم المنية أثناء تأدية مهامهم، مثل العالم الكبير أبي بكر يحي بن مسعود المحاربي الذي مات بمدينة سلا بعد قيامه بسفارة عن سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج النصري ت733هـ /1334م لدى سلطان فاس أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني عام 727هـ/1328م، ودفن هناك بمقبرة شالة[38].

ومنهم من هرب أثناء تكليفه بهذه المهمة ولم يرجع إطلاقا إلى غرناطة كما هو حال السفير علي بن يوسف بن كماشة الذي خرج من بلاده في سفارة شكلها نحو فاس بغرض جلب عائلة السلطان أبي الحجاج الغرناطي ،إلا أنه غير وجهته إلى حدود قشتالة، مؤثرا المكوث بها عن العودة إلى بلاده ،بل وصل به الحد إلى اعتناق المسيحية بدل دينه الإسلام، الأمر الذي أسخط عليه السلطان الغرناطي وعمل على الانتقام من سوء صنيعه ،وهو ما نقف عليه من قول ابن الخطيب الذي وجد بدوره في هذا التصرف فرصة مواتية لصب جام غضبه عليه ،نظرا لسوء العلاقة التي كانت بينهما على ما يبدو من قوله: «...شديد الشح، كثير النجه ،عظيم التبرم ،قليل

الرضى...بلغ أمنيته القصوى من اقتناء عهد وضرب وعد...موهما نفسه البقاء والتملق...وقيادة الدجن عند تحول الوطن دار كفر...عينه للسفارة على باب ملك المغرب لمحاولة جلب ولده وحرمته...فقام سد الوحشة بين إسعاف السلطان وبين غرض الرسالة...ولما استقر بسبته اختار ركوب البحر في أجفان النصارى...فأشهد بتفضيل ملتهم على الحنيفية السمحة ،واختارهم على أهل القبلة تهاويا في مطارح الضجر...فتقبض عليه ليلا هو وولده...فغربوا إلى تونس وكفى الله الشر وأذهب العر>>[39].

أما من الجانب المريني فقد أولوا بدورهم عناية فائقة بهذا الباب وذلك ما توضحه تلك القيمة المعنوية والحسية للسفراء الذين كانت ترسلهم فاس إلى غرناطة بين الفينة والأخرى أو كلما تطلب الأمر ذلك، ناهيك عن عددهم المعتبر نظير كثرة الحاجة للتواصل بين السلطنتين ،ومن بين أولئك السفراء نجد العالم الكبير أبو عبد الله المقري قاضي الجماعة بفاس الذي قاد وفدا رفيع المستوى إلى غرناطة عام 759هـ /1360م[40].

وكذلك العالم الشهير ابن مرزوق التلمساني[41] الذي وصل إلى غرناطة حاملا لرسالة من السلطان أبي الحسن المريني عام 748هـ/1349م وفي ذلك يذكر ابن الخطيب: «...اشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره ،اشتمالا خلطه بنفسه، وجعله مفضى سره ،وإمام جمعته وخطيب منبره، وأمين رسالته ،فقدم في غرضها إلى الأندلس...>>[42].

ونجد أيضا سفارة العالم أبو يحي بن محمد بن أبي مدين الذي وجد عند وصوله لغرناطة عناية كبيرة تليق بمقامه وعلو شأنه ،نظرا للفرح والسرور الذي قدم به على السلطان وحاشيته ،وهو ما نلمسه من قول ابن الخطيب: «...إنا ورد علينا كتابكم الذي سطره البر وأملاه وكنفه اللحظ وتولاه...وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد...وقد حضر بين أيدينا رسولكم الذي وجهتم...وهو من الأمانة والفضل، والرجاحة والعقل...فأطنب في تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان...مما يؤكد المودة المستقرة الأركان ...فأجبناه بأضعاف ذلك مما لدينا لكم وقابلنا بالثناء الجميل أقوالكم وأعمالكم...>>[43].

ج/السفارات المزدوجة:

واستمرت صور تبادل السفارات بين سلطنتي بني نصر وبني مرين حتى في الأوقات العصيبة التي كان يمر بها أحد الطرفين أو هما معا، وهو ما نقف عليه في تلك السفارتين المرينيتين المزدوجتين، الأولى التي كلف بها كلا من الوزير المريني أبو علي بن أبي عبد الله بن محلى والفقيه الشهير أبو عبد الله بن أبي عبد الله الفشتالي نظير أهميتها الخاصة لدى بني مرين وبني الأحمر معا ،حسب ما يثبته قول ابن الخطيب: «...من حمراء غرناطة حرسها الله،وفضله عز وجل قد أدال العسر يسرا...ومقامكم هو عدة الإسلام إذا جد حفاظه وظله الظليل إذا ألفح الكفر شواظه... فإننا ورد علينا كتابكم الكريم الذي كرم أنحاء وأغراضا...ووردت الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المزرية بدرر النحور والترائب...حثثتم فيه على إحكام السلم الذي يحوط الأنفس والحريم بسياج ،ويداوي القطر العليل منها بأنجى علاج...فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذي كرم مفهوما ونصا...واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها ، وأشرتم إلى فضلها...فألقينا في هذه الحال إلى رسوليكم أعزهما

الله ما يلقيانه إلى مقامكم الأعلى ومثابتكم الفضلى، ورسولاكم يشرحان الحال بجزئياته ويقرران ما عندنا من الود الذي سطع نور آياته...>>[44].

وأما السفارة المزدوجة الأخرى فهي تلك التي قدما في شأنها على غرناطة كلا من الشيخ أبي بكر بن موسى والقائد المريني أبي سالم بن الحاج، ولحساسيتها تم تدعيم السفيرين بثالث وهو الفقيه أبا العباس الحصار ،وسبب ذلك يكمن في استفسار السلطنة المرينية عن ما يسميه ابن الخطيب بالغرقورة[45] والوقوف على حال البلاد الأندلسية بعد هلاك ملك قشتالة الذي لم يورد لنا اسمه أو وصفا لحالة موته، ومما ورد في الجواب الغرناطي على تلك السفرية قوله: «...وجهنا إلى سلطان قشتالة قريبنا الريس الأجل أبا جعفر بن نصر وصاحب ترجمتنا...ليلقيا إليه في شأن ما جرا على أبيه من هلاكه، وما تصير إليه من ميراث ملكه...وجعلنا قضية الغرقورة الغرض المقدم...وكتبنا إلى صاحب قشتالة في هذه القضية كتابا يصلكم نسخته طي كتابنا هذا...وأذنا للشيخين الأجلين رسوليكم الوافدين علينا...أعزهما الله في اللحاق بمقامك الأسمى...وأمسكنا ثالثهما...حتى يقف من جواب الطاغية على ما يكون فيه إعلام لكم وإنبا...هذا ما عندنا خاطبنا به مقامكم العلي...>>[46].

ونجد كذلك سفارة الفقيه الكبير أبو العباس ابن الخطيب الذي يصف ابن الخطيب حاله بقوله: «...ورد على بابنا خديمكم الشيخ الفقيه الخطيب، الأفضل الأرضى العابد المجاهد الأمضى...وصل الله كرامته وسنى سلامته ،فألقى إلينا مشافهة من جميل اعتقادكم، وكريم ودادكم...وبالغ في تقرير ما لديكم بهذه الجهات من العناية بأحوالها، والتحقيق لآمالها...فحمدنا الله ما وهبنا من ودكم، وعلمنا أن نية الجهاد كفيلة لكم في الدارين ببلوغ قصدكم...وقد ألقينا إليه من شكر أفضالكم والثناء على جلالكم...>>[47].

هذا بالإضافة إلى اشتهار بعض الشخصيات التي كان لها مكانة مرموقة على عهد بني الأحمر وبني مرين في تقلد منصب السفارة لدى السلطنتين معا، كما هو حال العالم أبي إسحاق عبد الله بن إبراهيم بن قاسم النميري الذي اشتغل سفيرا عند كل من السلطان محمد الغني بالله النصري والسلطان أبي الحسن المريني وخليفته على حكمه أبي عنان، حيث قام عنهم في مناسبات مختلفة بالنزول إلى إمارات المغرب الإسلامي كتلمسان وبجاية وتونس، فأحسن إتمام مهمته على وجه يليق بمقامه[48].

ومن بين الأمور التي تثير الإنتباه هي وجود العديد من السفراء الذين كانوا ينزلون على غرناطة بين الحين والآخر وفي أغراض مختلفة غير أنه لم يتم ذكر أسمائهم من طرف البلاط الغرناطي ،ولا يعلم سبب ذلك على وجه التحديد، فلعله يعود إلى سرية أو حساسية الموضوع الذي كلفوا بحمله والتكتم على أمره، لذلك نجدهم يكتفون بذكر الرسالة دون ذكر حال حاملها أو أسماء ووظائف المرافقين له، منها ما صدر عنهم في مناسبة: «...رأينا أن وجهنا إلى بابكم الرفيع بكتابنا صحبة أرسالكم الواصلين إلينا، الوافدين علينا...وهو القائد أبو فلان وهو ممن له ببساطنا مكانة، وله في طرق الرسالة دربة بها وأمانة...وحملناه ما يعيده لمقامكم ويبديه مما رجونا حسن منابه فيه...>>[49].

وهي الحال ذاتها في مناسبة أخرى عندما يتم إخفاء اسم السفير المريني القادم على غرناطة في أحد الأغراض السلطانية: «...وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد أسعده الله إلى نظره، وتخيرتموه لصحبة سفره

فلان، وهو من الأمانة والفضل والرجاحة والعقل ..فأجبناه بأضعاف ذلك مما لدينا لكم، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم...>>[50].

ونجد تلك الصورة تتكرر مرة أخرى في إحدى الرسائل التي رد فيها السلطان أبو الحجاج يوسف النصري ت755هـ/1356م على هدية حملها سفير فاس نيابة عن السلطان أبي عنان المريني ت759هـ/1360م ،إذ يتم ذكر اسم السفير وذلك بقوله: «...وقد حضر بين يدينا خديمكم فلان، فألقينا إليه من شكر مقامكم ما لزم ووجب...فلمجدكم الفضل في الإصغاء لما يلقيه والقبول على ما من ذلك يؤديه...>>[51].

والشأن ذاته مع بعض السفراء الغرناطيين الذين كانوا يفدون على فاس، وهو ما نقف عليه في إحدى الرسائل: «...وأننا وجهنا كتابنا ليخطب في هذا الهناء...واخترنا للوفادة به من ينوب عنا في هذا الغرض ويقوم للوقت بواجب المفترض...فلان وفلان، وصل الله إعزازهم وكرامتهم ويمن ظعنهم وإقامتهم ...فتفضلوا بالقبول المعهود وأوردوهم من بركم أعذب الورود...>>[52].

ويواصل البلاط الغرناطي في موقف آخر عادته في تجاهل ذكر الوافدين على فاس من السفراء ، إذ يكتفي بقول: «...وعينا رسولنا الذي أوفدناه على بابكم الكريم لتقرير ذممه، وإلقاء ما يسع في استيفائه عادة مجده وكرمه...>>[53]، وحتى وإن كان الأمر بالغ الأهمية تجده يصر على إخفاء أسمائهم، من ذلك قوله: «...وإننا الآن وجهنا من يجدد العهد بهذا الغرض، ويقوم منه بالواجب المفترض ...وهو فلان ،وألقينا إليه من تقرير الود ما يرجى أن يضطلع به...>>[54].

هذا دون إهمال الإشارة إلى السفراء الذين تجاوزت شهرتهم غرناطة وفاس، كما هو حال أبي عمرو محمد بن عبد الله بن قاسم النميري الذي أرسل سفيرا من غرناطة إلى المغرب والمشرق معا، وذلك لمعرفته بالأحوال العامة للإقليمين معا وطبيعة أناسهما، وهذا حسب ما نقله ابن الخطيب بقوله: «...وتولى بالمغرب خططا نبيهة علية...ثم اقتضت له العناية بإشارتي أن يوجه في غرض الرسالة إلى تونس وصاحب مصر، لما تقدم من مرانه على تلك البلاد...>>[55].

ووصل الأمر إلى تعيين بعض السفراء من غير المسلمين ومن غير أصحاب المناصب السامية في السلطتين ولعل ذلك مرجعه إلى بعض المراحل الخطيرة التي كانت تشهدهما المملكتين معا أو على انفراد، وهو ما تطرق إليه ابن الخطيب في تلك الرسالة الطويلة التي وردت على غرناطة قادمة من فاس، كلف بحملها تاجر نصراني لم يفصح عن اسمه إلى السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري ،ومما ورد فيها: «**...المقام الذي لا تفل الشدائد غرب عزمه ولا تستخف الحوادث هضبة حلمه...وصلنا كتابكم الذي هو عندنا الوافد الكريم الوفادة، العظيم الإفادة على يدي التاجر النصراني فلان...أن جيشكم المنصور افتتح المدينة عنوة وقهرا واستولى على من كان بها من الفرسان والرجال قسرا...وأنكم على قدم الحركة التي جعلتم فيها التوكل على الله دليلا والاستعانة به وليا وقبيلا...وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم...**>>[56].

غير أن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن العلاقة بين غرناطة وفاس لم تك على أحسن ما يرام طيلة العهدين النصري والمريني، بل كان يشوبها نوع من الجفاء والجمود وهو ما أدى إلى انقطاع في وفود السفراء من وعلى

الجانبين ،سببه بدرجة أولى الخلافات السياسية حول بعض المسائل كمشيخة الغزاة ومنطقة جبل الفتح وموقف الطرفين من بعضهما البعض في التعامل مع المناوئين لهما أو مع نصارى الأندلس.

كما أن تدهور العلاقات في عمومها بين الدولة المرينية وكلا من سلطنتي بني زيان[57] بتلمسان وبني حفص بتونس جعلها تعمل جاهدة على مواصلة توطيد علاقات الصداقة[58] مع سلاطين غرناطة النصريين[59] حتى لا تبقى في عزلة خارجية عن الأحداث الإقليمية المتطورة الحال.

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه من خلال هذه اللمحة السريعة حول السفارات الغرناطية الفاسية هو:

- أن هذه السفارات كشفت عن مدى متانة العلاقات الغرناطية المرينية مدة طويلة من الزمن رغم ما كان يشوبها أحيانا من الفتور بسبب بعض الخلافات المتعلقة بمناطق النفوذ ومحاولة فرض الوجود.

- أعطت لنا الدراسة صورة جلية عن المستوى الراقي في تدبيج الرسائل المتعلقة بالمراسلات الخارجية وذلك من خلال استخدامها للألقاب السلطانية والعبارات الفخمة الخاصة بالفترة الزمنية، والتي كانت من أهم العوامل في نجاح تلك السفارات.

- عمل الغرناطيون على وجه الخصوص على تعيين أكفأ الشخصيات لهذه المهمة الصعبة نظير حرصهم الكبير على تحقيق أكبر نسبة نجاح خصوصا في الأوقات الحرجة وعلى رأسها التحرشات القشتالية على حدود أراضيهم ،لذلك نجد العلماء والأدباء والشخصيات المرموقة في المجتمع الغرناطي من بين أغلب المترئسين لتلك الوفود.

- كانت معظم السفارات ترد من غرناطة على فاس في أغلب المناسبات وليس العكس ،وذلك راجع إلى حاجة سلاطينها بدرجة أكبر إلى المساعدات المرينية نظير القوة التي اشتهرت بها خصوصا أسطولها البحري القوي ،وهو ما يجعل الباحث عن تتبع عدد السفارات الواردة من فاس على غرناطة في تلك الفترة يقف أمام حقيقة واضحة لا غبار عليها، تمثلت في قلتها مقارنة بنظيرتها الغرناطية.

- وصول بعض السلاطين من الطرفين النصري والمريني إلى السلطة وما اشتهر عنهم من الحنكة السياسية وحسن علاقة الجوار مع الوعي بما يحدث خارج سلطنتيهما، كان سببا في زيادة عدد السفراء بينهما كما هو حال السلطانين أبي الحجاج يوسف ومحمد الغني بالله الغرناطيين وأبي الحسن وأبي عنان المرينيين، حيث تعتبر فترتهم من أزهى فترات التقارب الغرناطي الفاسي في القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي

6.الهوامش:

[1] غرناطة: مأخوذة من الإسم العجمي الذي يقصد به الرمانة وذلك لجمالها وحسن موقعها على ضفة أحد أنهارها الشهير بنهر شنيل ،اتخذها بنو الأحمر عاصمة لهم على عهد مؤسسها محمد بن يوسف النصري عام 635هـ /1237م (أنظر: ياقوت الحموي ،معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ،**معجم البلدان** ،ط1،دار صادر،بيروت ،1993م ،ج4 ،ص.195).

[2] فاس بالسين المهملة مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر ،وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش (أنظر: ياقوت الحموي **معجم البلدان** ،ج4 ،ص.230).

[3] بنو نصر أو بنو الأحمر: ترجع هذه التسمية إلى مؤسس الدولة الأول أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر الشهير بابن الأحمر الذي بايعه أهل غرناطة عام 635هـ /1237م سلطانا عليهم ،عرفت الدولة الفتية على عهده رقيا حضاريا كبيرا إلى غاية وفاته عام671هـ /1272م (أنظر: ابن أبي زرع الفاسي ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،دار المنصورة للطباعة والوراقة الرباط ،1972م ،ص.275 ،ابن عذارى ،**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ،قسم الموحدين ،ص.296).

[4] بنو مرين بني مرين إلى جدهم مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن واسين الذي ينتهي نسبه إلى أحد بطون زناته غير أن منهم من يرفع نسبهم إلى العرب العدنانيين بدءا من بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ،قاموا بإنشاء دولة على إثر الضعف الكبير الذي لحق دولة الموحدين التي عجزت بدورها عن رد التمردات التي كانت تشهدها بلاد المغرب الإسلامي ،ويعتبر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ت685/1286م المؤسس الحقيقي لهذه الدولة عام 668هـ/1269م والتي أصبح لها مكانة كبيرة ببلاد المغرب والأندلس معا (أنظر: ابن خلدون ،العبر ،ج7 ،ص-ص.197-221، ابن أبي زرع ،روض القرطاس ،ص.400 ،السلاوي ،الإستقصا ،ج2 ،ص ص.13 ،14 ،ابن الخطيب ،اللمحة البدرية ،ص.80)

[5] هو المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المكنى بأبي عنان ،ولد عام 729هـ /1330م ،بويع بالحكم عندما بلغه نبأ غرق أبيه أبو الحسن المريني ت752هـ/1353م مع أسطوله قبالة ساحل بجاية ،مات خنقا على يد وزيره الحسن بن عمر الفودودي سنة 759هـ/1360م (أنظر: إسماعيل بن الأحمر ،**روضة النسرين في دولة بني مرين** ،تح: عبد الوهاب بن منصور ،ط3 ،المطبعة الملكية ،الرباط ،1411هـ /1991م ،ص.36).

[6] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1 ،المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1400هـ /1980م ،ج1 ،ص-ص. 239-243 .

[7] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان بعد انتقال السكان** ،تح: محمد كمال شبانة ،مراجعة حسن محمود ،د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة ،1386هـ/1966م ،ص.80-82 ،ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 227 ،228.

[8] حاصر النصارى بقيادة ألفونسو القشتالي ضواحي مملكة غرناطة الجنوبية من أجل إخضاعها لحكمهم رغم الهدنة التي كانت سارية المفعول بين الطرفين النصري والقشتالي ،وهاجموا فعلا منطقة جبل الفتح عام 751هـ /1350م ،غير أن تفشي داء الطاعون بالمنطقة أدى إلى انسحاب القوات القشتالية بعد موت الملك ألفونسو الحادي عشر (أنظر: ابن الخطيب ،**اللمحة البدرية في الدولة النصرية** ،دراسة وتح: محمد مسعود جبران ط1 ،دار المدار الإسلامي ،بيروت ،2009م ،ص ص.133 ،144).

[9] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص-ص.142-144.

[10] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 129 ،130.

[11] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص. 326.

[12] لسان الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن الخطيب ،**الإحاطة في أخبار غرناطة** ،تح: محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،1393هـ/1973م ، ،مج4 ،ص.326.

[13] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص-ص. 459-464.

[14] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان**،ص. 151.

[15] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص –ص 418-421 .

[16] ابن الخطيب ، **ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص-ص.375-382.

[17] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص.137.

[18] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص-ص.127 -132.

[19] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص- ص. 436-438.

[20] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص ص. 134 ،135 ،ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص.544 ،545.

[21] ابن لخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 457 ،458 ،ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص ص.141 ،142.

[22] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص. 165.

[23] يعتبر السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق من السلاطين المرينيين الذين أثاروا إعجاب المؤرخين وعلى رأسهم ابن الخطيب ،وذلك ما نلمسه عندما يورد ذكر اسمه في مؤلفاته المختلفة أين تجده يسهب في مدح صفاته وتعديد خصاله ،منها قوله في إحدى المناسبات: <<...وكان ملكا صالحا ظاهر السذاجة ،سليم الصدر ،مخفوض الجناح لقومه...أشبه بالشيوخ منه للملوك في احتمال اللغط...وهو الذي استولى على ملك الموحدين واجتث شجرتهم من فوق الأرض وورث سلطانهم...>> (أنظر: ابن الخطيب ،**اللمحة البدرية** ،ص. 80).

[24] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني الذي ينتمي بيتهم إلى العائلات اليمنية التي وفدت إلى الأندلس منذ السنوات الأولى للفتح الإسلامي واستقر أبنائها بقرطبة ومنها إلى مدينة لوشة على إثر تعرضها لأطماع النصارى وحالة اللا استقرار التي باتت تشهدها ،فكان مولده بها عام 713هـ/1313م لأسرة عرفت ببني الخطيب ،ولعل من بين أشهر الألقاب التي عرف بها لقب "ذو الوزارتين نسبة لدخوله في خدمة سلاطين غرناطة ،وذي العمرين بسبب إصابته بداء الأرق الذي لازمه طويلا ،وأخيرا ذي الميتتين وذي القبرين بسبب الموتة الشنيعة التي لحقت به عند مقتله بفاس عام 776هـ/1375م (أنظر: أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر ،**نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان** ،تح: محمد رضوان الداية ،ط1 ،دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع ،بيروت ،1967م ،ص. 58 ؛ابن العماد الحنبلي ،**شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ،د.ط ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،د.ت.ط ، ج6 ،ص .244 ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني ،**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ،د.ط ،دار الجليل ،بيروت ،1414هـ/1993م ،ج3 ،ص.469. شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ،**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب** ، تح: إحسان عباس ،ط1 ،دار صادر ،بيروت ،1968م ،مج5 ،ص.10).

[25] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ، ص ص 60 ،61.

[26] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ، ص ص.125 ،126.

[27] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج2 ،ص ص. 24 ،25.

[28] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص ص. 110 ،111.

[29] ابن الخطيب ،**اللمحة البدرية** ،ص.120.

[30] كانت أول سفارة كلف بها ابن الخطيب إلى فاس عام 755هـ/1356م وهو ما أقره بنفسه في خضم تعريفه بأعيان ومشاهير غرناطة الذين كان لهم شأن كبير حيثما حلوا ونزلوا ،أمثال المفتي الكبير أبي عبد الله محمد بن محمد بن جزي وذلك بقوله: <<... أخبرني عند لقايه أياي بمدينة فاس في غرض الرسالة عام خمس وخمسين وسبعماية...>> (أنظر: ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج2 ،ص. 257).

[31] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ،ص.324.

[32] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج2 ،ص. 19.

[33] ابن الخطيب ،**اللمحة البدرية** ،ص 131.

[34] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ،ص443.

[35] هناك شبه إجماع بين المؤرخين أن السفارة الأكثر شهرة والتي رفعت من شأن ابن الخطيب لدى مملكة بني الأحمر وزادت من مكانته عند أهل غرناطة هي تلك التي قام بها إلى فاس بأمر من السلطان الغرناطي محمد الخامس ت 793هـ/1390م طلبا للعون ضد أطماع مملكة قشتالة وذلك عام 756هـ /1355م ،حيث استطاع بواسطتها أخذ وعد من سلطانها أبي عنان المريني بتلبية جميع طلبات بني نصر بعد أن أنشده قصيدة قال فيها:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر

ودافعت عنك يد قدرته ما ليس يسطيع دفعه البشر

ليس لنا ملجأ ناملة سواك أنت الثمل والوزر

(أنظر: أحمد بن خالد الناصري ،**كتاب الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى** ،تحقيق وتعليق: الأستاذ أحمد الناصري ،د.ط ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،2001م ،ج2 ،ص 96 ،المقري ،**أزهار الرياض في أخبار عياض** ،ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وآخران ،د.ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ،1358هـ /1939م ،ج1 ،ص.206).

[36] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج2 ،ص.17.

[37] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج2 ،ص. 20.

[38] ابن الخطيب ،**االمحة البدرية** ،ص. 120.

[39] ابن الخطيب ،**نفاضة الجراب في علالة الإغتراب** ،تقديم وتحقيق: السعدية فاغية ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ، 1409هـ/1989م ج3 ،ص ص 161 ، 162.

[40] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ،ص363.

[41] يعد العالم الكبير أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق ظاهرة من الظواهر العلمية والسياسية التي شهدها المغرب الإسلامي في القرن الثامن هجري /الرابع عشر ميلادي نظير ما قدمه من خدمات جليلة سواء بالتأليف أو بالمهام الكبيرة التي تقلدها في مسيرته الطويلة ككاتب أو كسفير لدى بني مرين وبني الأحمر على حد سواء ،وهو كذلك من الشخصيات التي نالت إعجاب وتقدير معاصريه أو من جاءوا بعده ،ولعل من أشهرهم ذكرا له والإشادة بفضله بعد ابن الخطيب على الإطلاق نجد ابن خلدون الذي يصفه بقوله: <<...صاحبنا الخطيب أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق من أهل تلمسان ...ومولده فيما أخبرني سنة عشر وسبعمائة وارتحل مع أبيه إلى المشرق...وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه ،وبرع في الطب والرواية ،وكان يجيد الخطين ،ثم رجع سنة خمس وثلاثين إلى المغرب ،ولقي السلطان أبي الحسن بمكانه في تلمسان...واختصه وقربه...وحضر معه واقعة طريف...فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس...استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه...ونظمه في أكابر أهل مجلسه ،وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي...>> (أنظر: ابن خلدون **رحلة بن خلدون شرقا وغربا 1352 – 1401 م** ،عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ،حررها وقدما لها: نوري الجراح ،ط1 ،دار السويدي للنشر والتوزيع ،أبو ظبي ،2003م،ص-ص. 50-52).

[42] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج3 ،ص.104.

[43] ابن الخطيب ،**نفاضة الجراب** ،ج3 ،ص ص. 155 ،156.

[44] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص-ص. 514-517.

[45] الغرقورة: سفينة ذات حجم كبير استخدمت لحمل المئونة لسفن الأساطيل البحرية أوقات الحرب والسلم ،ذات أشرعة ثلاثة لمساعدتها على السير بسرعة وقت اشتداد الرياح (أنظر: محمد المنوني ،**ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ،1979م ،ص78).

[46] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 531 ،532.

[47] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص. 529.

[48] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج1 ،ص ص.343 ،344.

[49] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص.131 ،ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 450 ،451.

[50] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص. 489.

[51] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص. 62.

[52] ابن الخطيب ،**كناسة الدكان** ،ص ص. 72 ،73.

[53] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص.247.

[54] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص ص. 446 ،447.

[55] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج3 ،ص.209.

[56] ابن الخطيب ،**ريحانة الكتاب** ،ج1 ،ص –ص. 432-436.

[57] بنو زيان: نسبة إلى مؤسسها يغموراسن بن زيان الذي حكم تلمسان من 1236-1282م ،حيث عرفت المدينة على عهده تطورا ملحوظا ،جعلها إلى أن صارت قاعدة لما صار يعرف بالمغرب الأوسط ،لتدخل فيما بعد في صراعات طويلة مع جيرانها المرينيين والحفصيين .

[58] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ،ص.ص ص.328-330. ،**اللمحة البدرية** ،ص-ص105-108. ،كناسة الدكان،ص25.

[59] ابن الخطيب ،**الإحاطة** ،مج4 ،ص.ص ص.328-330. ،**اللمحة البدرية** ،ص-ص105-108. ،كناسة الدكان،ص25.

المصادر والمراجع:

1/ ابن أبي زرع الفاسي ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،دار المنصورة للطباعة والوراقة ،الرباط ،1972م.

2/ ابن الأحمر إسماعيل بن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ،روضة النسرين في دولة بني مرين ،تح: عبد الوهاب بن منصور ،ط3 ،المطبعة الملكية ،الرباط ،1411هـ /1991م.

3/ ابن الأحمر ،نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ،تح: محمد رضوان الداية ،ط1 ،دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع ،بيروت ،1967م.

4/ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،د.ط ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،د.ت.ط ، ج6.4

5/ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،د.ط ،دار الجليل ،بيروت ،1414هـ/1993م ،ج3 .

6/ ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد ،الإحاطة في أخبار غرناطة ،تح: محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي ،القاهرة ،1393هـ/1973م ،مج4.

7/ ابن الخطيب ،ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1 ،المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1400هـ /1980م ،1401هـ/1981م ،ج1 ،ج2

8/ابن الخطيب ،اللمحة البدرية في الدولة النصرية ،دراسة وتح: محمد مسعود جبران ط1 ،دار المدار الإسلامي بيروت ،2009م.

9/ابن الخطيب ،كناسة الدكان بعد انتقال السكان ،تح: محمد كمال شبانة ،مراجعة حسن محمود ،د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة ،1386هـ/1966م.

10/ ابن الخطيب ،نفاضة الجراب في علالة الإغتراب ،تقديم وتحقيق: السعدية فاغية ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1409هـ/1989م ،ج3.

11/ ابن خلدون ،رحلة بن خلدون شرقا وغربا 1352–1401م ،عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ،حررها وقدما لها: نوري الجراح ،ط1 ،دار السويدي للنشر والتوزيع ،أبو ظبي ،2003م.

12/ السلاوي أحمد بن خالد الناصري ،كتاب الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ،تحقيق وتعليق: الأستاذ أحمد الناصري ،د.ط ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،2001م ،ج2 .

13/ ابن عذارى المراكشي ،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،قسم الموحدين ،تح: محمد إبراهيم الكتاني محمد بن تاويت ،محمد زنيبر ،عبد القادر زمامة ،ط1 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،دار الثقافة ،الدار البيضاء 1406هـ/1985م.

14/ المقري التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد ،أزهار الرياض في أخبار عياض ،ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وآخران ،د.ط ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ،1358هـ /1939م ،ج1.

15/ المقري التلمساني ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تح: إحسان عباس ،ط1 ،دار صادر ،بيروت ،1968م ،مج5 .

16/ياقوت الحموي ،معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ،معجم البلدان ط1،دار صادر،بيروت ،1993م ،ج4 .

17/ محمد المنوني ،ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية،الرباط ،1979م.